

فدوى طوقان : ثلاث خطوات الى ينبوع

فوزى كريم

(١)

فدوى طوقان شاعرة رومانسية ، في مرحلة زمنية لا قدرة لها على مجرد احتمال تكرار هذه الكلمة . ورومانسيتها غير مدرسية ، بهذا المعنى ، لانها مجردة عن اهم ما تمتاز به تلك ، وهو ارتباطها بمرحلة ذات قوسين زمنيين . من هنا نستطيع ان ننسحب دون تردد الى نقطة أجدها هامة ، وهي : المرأة في فدوى طوقان ، والمرأة العربية بشكل خاص . فالرومانسية ، حين تتجرد من دوافعها الزمنية العامة ، انما تستحيل الى حالة هامشية شبه مرضية ، ذات سمة ذاتية مفضضة . ولعل من الواضح ان شعرنا العربي ، في شريحته النسائية المزوية ، دون استثناء ، انما تعتبر تلك السمة من أبرز سماته . هل تعتبر الرومانسية — والاستعمال لهذه المفردة سيظل مجازيا — في هذه الحالة شركا ؟ وهل يعتبر هذا التحرك النسائي — شعريا — منزلقا عن حافة الطريق التي تشكل معالمها الواضحة قاعدة عامة ؟ لا شك اننا سنقع في خطأ فادح اذا ما فصلنا ، بنية رسم القاعدة ، بين قصيدة المرأة العربية وبين المرأة ذاتها . فالشاعرة العربية لم تنزلق الى مجرى الرومانسية هذا ، ولم تقع فيه سهوا او خطأ . ولكنها ، شأنها شأن المرأة العربية ، خاضعة ، بحكم علاقاتها المجتمعية ، والانسانية من بعد ، وبحكم علاقاتها بالرجل والعائلة ، وهي علاقات اقتصادية في الاساس ، أقول ، لكنها خاضعة لسدرة شبه تدريية ، حملتها الى هذه النزعة ذات الأنا المتضخمة ، وذات الهوس الى التأمل الماورائي ، والحنين الى المجهول ، الى نزعة رومانسية مجردة عن دائرتها التاريخية ، ومجردة بالتالي عن جوهرها الصحي . فرومانسية الشاعرة العربية ، والمرأة العربية من ورائها ، سمة من سماتها ، وهاجس سلبي من هواجسها السلبية الأخرى . وهذه دالة اجتماعية قبل كل شيء . يأخذ الشعر فيها دورا سلبيا هو الآخر . لانه يقتصر على « التعبير » عن الذات ، فحسب ، والتنفيس عن انفعالات داخلية تخلفها حساسية مفرطة ، كما لو كان صامتا للامان ، يفتح في اللحظة المناسبة ، لا أداة للتغيير ، وغاية في ذاتها تتشكل باعتبارها حصيلة لتجربة انسانية واسعة .

ليست هذه الدراسة متابعة عامة لمجمل الجوانب الشعرية التي أعطتها خمس مجموعات شعرية (١) لفدوى طوقان ، وليست هي دراسة فنية ونقدية ، تريد ان تحدد مجمل

١ — لفدوى طوقان خمس مجموعات شعرية ، صدرت جميعها من دار الآداب — بيروت : وهدي مع الأيام ، كانون الثاني ١٩٦٠ (طبعة خامسة) ، وجدتها ، ايلول ١٩٦٦ (طبعة رابعة) ، اعلنا هيا ، ١٩٦٠ (طبعة ثالثة) ، امام الباب المغلق ، آب ١٩٦٧ (طبعة اولى) ، الليل والفرسان ، تبرز ١٩٦٩ (طبعة اولى) .